أثر علم النفس في التربية

الدكتور احمد حسن الرحيم
الاستاذ المساعد فى قسم التربية وعلم النفس
كلية التربية ـ بغداد

فى العصر الحديث كان المربى الالمانى فردريك هربرت المتوفى سنة ١٨٤١م شديد الحماسة لجعل علم النفس علما تجريبيا بمعنى الكلمة ونادى بوجوب اعتماد التربية عليه اعتمادا وطيدا وهو مبتدع الخطوات الخمس المعروفة بخطوات «هربرت المنطقية» فى التدريس وهى ان يبدأ المعلم بمقدمة عن الدرس تثير رغبة الطلاب فيه واستعدادهم لتلقيه ثم تعرض مادته عليهم بالالفاظ ووسائل الايضاح كالصور والنماذج وغيرها ثم تربط أجزاء الدرس بالدروس السابقة ويؤكد على وجوه التشابه والاختلاف بينهما ثم يحث الطلاب على التوصل الى الاستنتاجات والقواعد العامة المحتواة فى مادة الدرس . وبعدئذ تطبق هذه المبادىء لحل مشاكل حقلها . والملاحظ ان هذه الخطوة الخامسة : خطوة التطبيق والاستعمال هى محك القدرة على الفهم والاستيعاب والاستفادة العملية . ومن قديم روي عن الغزالى قوله (لو قرأ رجل مئة الف مسألة علمية ، وتعلمها ولم يعمل بها فلا تفيده الا بالعمل)(١) .

ان ما كتبه هربرت فى علم النفس وان لم يعجب علماء النفس المحدثين فقد وصفه وليم جيمس بالبشاعة الا ان حماسته لجعل علم النفس علما طبيعيا مستندا الى التجريب كانت نقطة بداية طيبة لحركة علمية لمن جاؤا بعده من رواد هذا

---

(١) كمال اليازجى : معالم الفكر العربى فى العصر الوسيط . بيروت (١٩٥٨) ص ٢٥٢ .

الحقل • حتى ازداد تعصب المدرسة السلوكية للطريقة التجريبية فى علم النفس فانكرت من مباحثه كل مالم يكن مستمدا من التجريب والاختبار • والسلوكيون لا يعارضون فى أن يتصور الانسان ما يشاء ولكنهم يأبون أن تفرض الاختبارات الشخصية والتأملات الذاتية على طريقتهم فى علم النفس • والطريقة السلوكية ضيقت مجال علم النفس ولكنها عادت عليه بربح من جهة اخرى اذا اصبحت نتائجه أجدر بالتصديق والثقة فى كثير من الاحوال • وكان اول رجال علم النفس التجريبى أو العملى الاستاذ الالمانى فنت Wundt المتوفى سنة ١٩٢٠ فقد انشأ مختبرا لعلم النفس فى لا يبزك Leipzig وعنى بالتجريب على فرضيته القائلة « ان العمليات العقلية قابلة للقياس عمليا » • وقد تتلمذ عليه من امريكا الاستاذان ستانلى هول Stanley Hall وماكين كتل Mckeen Kattell • فلما عاد هول الى امريكا اسس اول مختبر لعلم النفس فى جامعة هوبكنز Hopkins وصادف ان تتلمذ عليه المربى المعروف جان ديوى ونال درجة العالمية (بكسر اللام) فى علم النفس • ومن اشهر كتابات هول كتابه فى المراهقة وكتاب فى علم النفس الحديث • أما كتل Kattell فقد اهتم ببعض التجارب التى سبقه اليها العالم الانكليزى فرنسيس كالتون F. Galton فى الفروق الفردية فتابعها ونتج عن حركته هذه على مر الزمن حركة القياسات العقلية التى أفادت كثيرا فى حقل التربية والصناعة (١) وبعد قيام فنت بتجاربه على الوعى والفروق الفردية كذلك ، واصل البحث فى هذا الموضوع أحد المشتغلين بالعلم والفلسفة من الالمان وهو الاستاذ هرمن ابكهاوس Herman Ebbighaus فأجرى عدة تجارب على الذاكرة • ومع ان هذا البحث قد كان موضع جدل بين الفلاسفة والعلماء منذ زمن بعيد فانه لم تجر فيه تجارب قيمة قبل تجارب هذا العالم فصارت النتائج التى توصل اليها فى الحفظ والتذكر ذات أهمية فى التربية • وكلما واجهت التربية

---

(١) انظر : شاكر سوريال ، اختيار وتعبئة الكفايات للمؤسسات الصناعية والعامة • القاهرة • ١٩٥٦ •

مشكلة أو استعصى عليها أمر أعاد رجالها فحصهم الطبيعة البشرية وكيفية فهم قوانينها وسبر أعماقها • من ذلك مشكلة قياس الذكاء التي حفزت الطبيب الفرنسي بينـــــة Binet الى وضع مقياس للذكاء تعرف به طاقة الانسان العقلية معرفة تقريبية • وقد وجد بينه ومن قاموا على تنقيح مقياسه من بعده ان الطفل اذا حل المسائل الموضوعة لاطفال اكبر منه فهو ذكي واذا عجز عن ذلك ولم يستطع الا حل المسائل التي وضعت لمن هم أصغر منه فهو بليد واذا استطاع حل المسائل أو الاجابة عن الاسئلة التي وضعت لمن هم في سنه فهو متوسط الذكاء • اما كيفية وضع مسائل اختبار الذكاء فلها طريقة دقيقة تعتمد على الاستقراء والاحصاء • ووجد بينة Binet كذلك في الاعمال العقلية وجوب التفريق بين التعب الذي يسبب الهبوط في الكفاية العقلية وبين الملل الذي يحدث من فقدان الرغبة ومن قلة التشجيع والايحاء من دون ان يسبب بالضرورة هبوطا في قدرة العقل •

وقد درس « علم نفس الطفل وعلم النفس التربوي » الدوافع الفطـرية والمكتسبة التي تحرك شخصية الطفل كحب الاستطلاع وحب التفوق والميل الى الكفاح والابتكار للتغلب على الصعوبات وغيرها فوجهت توجيها اجتماعيا • فمن الممكن اشباع حب الاستطلاع بتهيئة كتب نافعة وشائقة تغذي في الطفل هــذا الميل من دون أن يحتاج الى ارواثه بتسقط الاخبار التافهة •

كذلك من الممكن توجيه الرغبة في الكفاح الى الرياضة البدنية ومكافحة اضرار الطبيعة كالاوبئة والفيضانات والجراثيم والحشرات الضارة وغيرها • وقد ذكر المربي والنفساني الامريكي ادوارد ثورانديك Edward Thorndike أن في الطبيعة البشرية نوعين من الميول اولهما ميول بناءة أو صالحة والنوع الاخر ميول مخربة فمن النوع المخرب ميل الطفل الى المشاكسة والقتال ومنها الغيرة والخوف ومن النوع البناء الميل الى التعلم والتحسن والانتاج والصداقة • وقال ان واجب التربية تغذية النوع الاول وتقويته واضعاف النـوع الثاني وتوجيهه الى أغراض نافعة • وقد قيل ــ وهذا رأي مختلف فيه ــ ان الانسان « خير بطبيعتـه وما الشر الا طاقة أسيء توجيهها » •

فواجب التربية ان تتدخل وتوائم عند حدوث الاصطدام بين دوافع الفرد التى تحثه على الاشباع وبين العالم الخارجى بما فيه من حرمان وجدب وتقاليد قاسية ومثل متبعة . وكلما استطاعت التربية أن تحور فى المحيط وفى سلوك الفرد وتكيفه بحيث يلائم متطلبات نفسه ومحيطه فقد قامت بواجبها وحققت أهدافها .

ومن الواضح ان كل توافق بين الفرد ومحيطه ان هو الا توافق وتلاؤم موقت تظهر عيوبه تدريجا ثم ينقلب بعد حين الى سوء توافق عنيف يحتاج الى تسوية جديدة . وقد عبر عن هذه الحالة الفيلسوف الالمانى هيكل Hegel ووصفها فى منطقه الدايلكتيكى بانها « القضية ونقيضها » لذا فتوسط التربية بين الفرد ومحيطه عملية مستمرة طيلة الحياة فلا يحصل التوافق التام بين الفرد ومحيطه الا بعد الموت .

وعلم النفس التربوى الحديث ينظر الى الطفل على انه وحدة معقدةالتركيب تتطور وترتقى تدريجا بواسطة ما يقوم به الطفل من أعمال فكرية وجسدية تحرك فعالياته فينمو فى جسمه وتفكيره وذوقه . على أن استفادة التربية من علم النفس لم تقتصر على تفسير عملية التعلم والانتفاع من اولاع الاطفال فى التدريس ومراعاة مراحل نموهم الجسمى والعقلى والاجتماعى فى مادة المناهج وطرق التدريس والامتحانات بل صار المعلم بما لديه من خبرة نفسية يستطيعأن يحدس ما يختلج فى نفس الطفل من مشاعر وأحاسيس فيرعاها ويخفف من حدتها أو ألمها أو يستغلها لحث الطفل على التقدم والنضج . كما أن معرفته بمبادىء التحليل النفسى وعلم النفس الاجتماعى تساعده على فهم الاطفال المشاكسين والمضادين لفعالية الصف (١) والمنكمشين والمهملين والمتأخرين ليسعى لمساعدتهم بما لديه من الوسائل التربوية .

---

(١) انظر : ارنست جونز التحليل النفسى . ترجمة محمد فتحى الشنيطى . « التحليل والتربية » ص ٨١ القاهرة ١٩٥٦ .

وقد اكتشف علم النفس الاجتماعى Social Psychology قاعدة هامة فى اصلاح الاحداث الجانحين أخذت المدارس والاصلاحيات فى الاستفادة منها وهى من انجع القواعد لعلاج الحدث الذى يتوقع منه أن يكون مجرما فى مستقبله بما يبدو عليه من أمارات الجنوح والاستعداد لارتكاب الجرائم وهى أن يبكر فى علاجه واصلاحه ما زالت مشكلته فى أدوارها الاولى قبل أن تشتد وتتأصل فى نفسه فمسألة الزمن فى علاج الجنوح والاجرام مسألة على غاية من الاهمية •

ومن النظريات القديمة فى علم النفس التربوى نظريتان محصتهما التربية الحديثة بما لديها من وسائل التجريب والتثبت وقد كانتا مثارا لجدل واسع •

اولاهما نظرية الملكات وقد تسربت الى التعليم بصورة رئيسية من كتابات ارسطو وفحواها اعتقاد هذا الفيلسوف بأن للعقل البشرى جوانب أو ملكات منها الاستدلال والتذكر والارادة • وهى فطرية فى وجودها ومع أن افلاطون وارسطو قد أكدا أن العقل وحدة غير مجزأة • وأن هذه الملكات جوانب منه فقد خالفهما مربو القرون الوسطى واعتقدوا أن ملكات العقل هذه مستقلة عن بعضها وعينوا لوجودها أماكن فى الدماغ • وقد فند علم النفس الحديث هذه النظرية وأثبت ان العقل فى عمله وحدة متماسكة لا ملكات منفصلة •

أما النظرية الثانية فذات صلة قوية بالاولى وهى يونانية فى أصلها كذلك فقد شارك فيها أرسطو استاذه افلاطون وفحواها ان العقل قابل للنمو والزيادة بالتمرين •

وأصبحت بلغة مربى القرون الوسطى : قابلية ملكات العقل ـ التى حوروا فيها وزادوا ملكة التخيل ـ على النمو بالتدريب ثم وضعوا للتربية مناهج تخدم التدريب لا التثقيف وأغراض الحياة معتقدين أن المدرسة مكان تشحذ فيه المواهب وتصقل قبل أن تكتسب فيه المعرفة • وذلك لان معتنقى هذه النظرية ومحبذيها ومنهم الفيلسوف الانكليزى جان لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) فى بعض كتاباته اعتقدوا ان تعلم الرياضيات يقوى ملكة التفكير وتعلم اللغتين اللاتينية

واليونانية يقوى الذاكرة لما فى هاتين اللغتين من صعوبة فى النحو والصرف وان اجبار النفس على القيام بالاعمال الكريهة وتحمل المصاعب العنيفة يقوى الارادة . كما أن الادب المفرط بالخيال والرؤى الغريبة مقو للتخيل . وقد محصت التربية الحديثة هذه النظرية ونفضت منها يدها بعد أن وجدت ان نمو العقل والذكاء قد يشحذه ويحسنه الاستعمال المثمر ولكنه مقيد ومحدد بمدى الوراثة وحدها . ثم قصد بوضع المناهج ان تخدم أغراض الحياة لا أن تكون عقبات فكرية أو حفظية يقصد بها التمرين . ووجدت التربية الحديثة أن اختبارات المعلومات المدرسية Achievement tests المقننة تساعد المعلم على مقارنة مستوى طلابه بمستوى الطلاب الآخرين فى مدرسته أو مدرسة اخرى فيطلع على موضع صفه بين طرفى التقدم والتأخر العلمى . وبفضل المعرفة الحديثة فى علم النفس تخلص الطلاب من حفظ مقادير كبيرة من الشعر والنثر لغايات خلقية وسلوكية كما كان يصنع الصينيون فى حفظ حكم كونفشيوس وكما كان يصنع الاثينيون فى حفظ أشعار هوميروس . فقد وجد أن التصرف السليم يحتاج الى أعداد أوسع وأعقد من تذكر النصائح والارشادات . ونجوا كذلك من « الفلقة » والعقوبات البدنية الصارمة الاخرى التى لا يزال يحن لعهدها أساتذة التربية القديمة اذ اكتفوا من أدب الطفل بهدوئه الظاهر . فأصبح المعلم الكفء صديقا يشترك مع الاب والام فى تربية أطفالهما ويتحمل القسط الاكبر فى هذا العمل الجسيم .

ومع أن دراسة النفس الانسانية تحاول أن تكون موضوعية وان تنهج فى بحثها منهج العلوم الطبيعية حتى لقد نسب علم النفس الى العلوم الطبيعية فى مصادر عديدة برغم هذا فقد تشعبت مدارس البحث فيه وتوصلت الى قوانين ونتائج يمكن وصف بعضها بأنها متداخلة ولكنها غير متماثلة وان كان بعضها يبلغ درجة التضاد التام أحيانا . فبينما يعد العقل الباطن من المكتشفات القيمة فى مدرسة التحليل النفسى اذا بالمدرسة السلوكية فى علم النفس التى ينسب اليها بافلوف الروسى (ت ١٩٣٦) وجان واتسون الامريكى أنكرت وجود العقل الواعى

والباطن ثم تراجعت قليلا فاعترفت تقريبا بوجود العقل الواعى قائلة ـ ان كان العقل موجودا ـ فهو غير قابل للدراسة العلمية • كما سبق لها ان انكرت الغرائز ووضعت نفسها بذلك فى اتجاه مضاد للمدرسة الغرضيـة فى علم النفس التى يترأسها مكدوكل • ثم اعترفت بثلاث منها وصفتها بأنهـا فطرية وهى الغضب والخوف والحب • وبينما تركز « مدرسة الكشتالت Gestalt أو الهيئة بحوثها على الادراك الشامل أو الكلى وايجاد العلاقات فى التفكير والتذكر اذا « بالمدرسة الوظيفة » فى علم النفس وهى المدرسـة النفسية التى ينتسب اليهـا جان ديوى (ت ١٩٥٢) تؤكد دور التكيف فى الحياة • وغير ذلك من الفروق بين مدارس علم النفس[١] التى قد تذهل المربى وتجعله مترددا فيما يأخذ للتطبيق وما يدع • ولكن ، على كل حال ، لقد أمكن أن تتفق بعض وجهات النظر وان يستخلص من أبحاث الجميع بعض المبادىء والقواعد العامة لتيسير عملية التعليم وتحسين نتائجه وتذليل صعوباته ومشاكله مثال ذلك المبدأ السـلوكى القائل (بضرورة ايجاد جو انفعالى شامل مناسب فى الصف حتى يمكن ان يقرن الطفل بين التعليم والجو السار)[١] •

ومثل هذا فى الاهمية تأكيد مدرسة الكشتالت على ضرورة (ادراك العلاقات بين الحوادث المتعددة التى تدرس فى التاريخ)[٢] وغيره من العلوم كما أن مدارس علم النفس تؤيد المبدأ الهام القائل بضرورة « أن يكون الطفل مصدر النشاط فى التعلم »[٣] وهذا يستدعى التمهيد للتعليم بالمشوقات والدوافع لاثارة نشاط الطفل وتحرير طاقته من الجمود •

---

(١) انظـر : (أ) روبرت وودورث ، مدارس عـلم النفس المعاصرة ، ١٩٤٩ •

(ب) سرجنت ، تعاليم اكابر علماء النفس ، نيويورك ، ١٩٤٩ •

(ج) مصطفى فهمى ، سيكولوجية التعليم والقاهرة ، ١٩٥٣ •

(١) و (٢) و(٣) هارى ريفلين تنمية القدرة على التعلم عند الاطفـــال ، ترجمة محمد عماد الدين اسماعيل • ترجمة طبعة ١٩٥٣ القاهرة ص ٦٥ •

مصادر اخرى اعتمدت فى هذه الدراسة :

1— Gardner Murphy, Historical Introduction To Modrn Psycholgy, New York, 1949.

2— W. E. Sargent, Psychology (Teach Yourself) Books. London, 1952.

3— J. C. Flugel, A Hundred Years of psychology, London, 1953.

4— Dockeray ,Psychology, New Yark, 1945.

